العدد الخامس
ايار (مايو) ١٩٥٩
السنة السابعة

No. 5 — MAI 1959
7ème ANNEE

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et
directeur
SOUHEIL IDRISS

معركة العرب معركة الانسانية

بقلم الدكتور عبدالله عبدالدائم

في المواقف التاريخية الكبرى التي تمر بها أمة من الامم، تأخذ العقائد والمذاهب معنى حيا جديدا ، ويستبين واقعها وشأنها على نحو لا تحققه المعاناة الفكرية النظرية لها . وعندما يحيا الناس ما دعاه « بيغي » Peguy باسم المرحلة التاريخية تزول الغشاوة عن الاعين ، وتشرق الحقائق اشراق الافق الازرق .

والامة العربية اليوم تجتاز مرحلة تاريخية كبرى . وهي منذ سنوات بدأت تعي وجودها وتدرك ذاتها ، بعد أن كانت بددا . وادراكها لذاتها، لنواتها ، لاصالتها ، وضعها بالضرورة امام الادراك الواعي لغيرها . فاساس ادراك الاشياء ، عمق ادراك الذات ، والاخر لا ينكشف الا من خلال « أنا » مشرق مضيء .

لقد ظل العرب فترة طويلة من الزمن في معزل عن فهم قيم الحضارة الانسانية ، لانهم ما كانوا يملكون عينهم التي ترى ، وما كانوا قد الفوا ذاتهم ، ليدركوا بها غيرهم . ولهذا كانت تتنازعهم العقائد المجلوبة والمذاهب الغريبة ، وكان كل مذهب طارق ممكنا لديهم ، اذ كانت المذاهب لا تغزو تربة مكونة او بنية ذات وجود ، وانما كانت تغزو سديما او عماء. ومن اليسير ان تشكل السديم كما يروق لك وان تصب فيه ما تشاء .

فلما يسر للامة العربية ان تبدأ من ذاتها قبل ان تبدأ من غيرها ، ولما ارادت ان تعرف « من هي » قبل ان تعرف من هم سواها، ملكت نورا جديدا تصبه على العقائد والمذاهب المجلوبة ، وقبضت على المعيار الذي يصلح ان تقدر به القيم .

وعند ذلك اخذت الحركات المعادية لها ولقوامها تنهال عليها انهيالا طبيعيا . أخذت المذاهب المغايرة لما وعت من كيانها ووجودها تصطدم معها وترتطم ، وقام الصراع عنيفا بينها وبين القوى التي جعلت مهمتها افناء هذا الكيان الذاتي الذي أخذت تشعر به هذه الامة العربية . وما العداء الذي اخذ يغزوها من كل جانب الا برهان ساطع على انها اصبحت « شيئا » و « وجودا » و « ذاتا » . وانها أخذت بالتالي تجذب اضدادها وتحرك نقائضها .

لقد ادركت الامة العربية ، بنتيجة نضالها وكفاحها الطويل وبنتيجة اليقظة التي اصابتها من تحاكها مع العالم الاجنبي، وبنتيجة عودها الى ذاتها وتراثها ، مجموعة من الحقائق الحية التي اصبحت جزءا من وجودها اليومي . **وعلى رأس هذه الحقائق انها لن تكون ((من هي)) ولن تجود بعطائها الانساني ولن تستطيع ان تسهم في حضارة العالم الا اذا اجتمعت اوصالها المقطعة وائتلفت عظامها المتزاحة .**

ومن هذه الحقائق ايضا ، أن التربية القومية ، هي الجو الضروري لترعرع المعاني الانسانية عندها ، وانها لن تتفتح وتزدهر وتتصل بالقيم الانسانية اذا كانت محجوبة عن هوائها الاصيل ، هوائها القومي . ففيه تعرف من عداها اذ تعرف نفسها ، وفيه تحب الانسانية ، لانها سليمة في في وطنها ، ولان محبة الاخرين امارة الرضا عن النفس .

وفي مثل هذا المتنفس القومي، تستطيع الامة العربية ان تطل على قيم العدالة والحق والمساواة ، وتستطيع ان تسهم في بناء هذه القيم في العالم ، بعد ان ذاقت طعمها في بلادها وحققتها لابنائها

ارثر كستلر — مؤلف « ظلام في النهار » ولد عام ١٩٠٥ في بودابست.
في سبيل تخلصه من الاستعمار الغربي، لا بد ان يلفظ جسده كل محاولة جديدة من اجل اخضاعه لاستعمار جديد . لقد قارع الاستعمار الغربي وهو أضعف بنية واقل وعيا لوجوده ، فهل يعجزه ان يقارع الاستعمار الشرقي بعد ان ادرك ذاته وعرف طريقه ؟))

بل لقد ادركت فوق هذا وذاك ان الحياة القومية هي الملجأ الذي تستطيع ان يلجأ اليه مثلها من الشعوب الصغيرة، امام تطاحن القوى الكبيرة، وامام رغبتها في البقاء والمحافظة على وجودها . فعن طريق هذه الحياة القومية العاملة على خير ابنائها وعلى خير الانسانية تكون في منأى عن الانسياق مع الكتل المتصارعة ، المتصارعة على اقتسام أمثالها .

غير ان هذا الادراك لمثل هذه الحقائق ، وهو ادراك نجده عند سائر الشعوب الصغيرة المقبلة على بناء نهضتها ، أثار القوى التي وضعت لنفسها هدفا ان تحول بين الشعوب الصغيرة وبين ان تكون كتلة ثالثة مستقلة ، والتي تجهد في سبيل أن تجعل مثل هذه الشعوب الصغرى أتباعا يجرون اذيالهم وراءها .

وهكذا اصطدمت القومية العربية الواعية لذاتها مع الكتل التي ساءها ان تشب عن الطوق والوصاية والتي ارادت ان تخضعها لسيطرتها .

وفي هذا الصدام انكشفت الحقائق ، ووضعت القيم موضع التجريح ، واستبان الصحيح منها من الزائف . بل في هذا الصدام وضعت القيم الانسانية كلها موضع بحث.

ولقد كان طبيعيا ألا تثبت مباديء المعسكر الغربي لهذا الصدام ، وان تتبدى منذ الوهلة الاولى مباديء زائفة ، فيها فراق بين ما هو مكتوب وبين ما يطبق . فهذا المعسكر الذي كثيرا ما انكر على المعسكر الشيوعي أساليبه ، والذي اتهمه طويلا بالكذب والمكر والضعف ، واضعا في مقابل ذلك احترام الحقيقة واحترام القانون واحترام العقول والنفوس ، لم يحفل هو بهذه المباديء في سياسته الخارجية والاستعمارية ، بل جعل منها في كثير من الاحيان جوهر سياسته الداخلية نفسها . وكثير من المباديء التي ينادي بها هذا المعسكر في بلاده ، من مثل الحرية والديمقراطية والرفاهية الاجتماعية ، تفترض سلفا استثمار المستعمرات ، والحياة على دماء الشعوب . ومن هنا كانت مبادئه الحرة ، على حد تعبير ماركس ، « حجة عامة للعزاء والتبرير (1) »

غير ان المعسكر الشيوعي الذي اخذ على المعسكر الغربي مثل هذه المآخذ ، لم يستطع بدوره الا ان يقع فيما هو ادهى منها :

لقد رفض ماركس ان نحكم على مذاهب الحرية من خلال الافكار التي تبشر بها وتكتبها في الدساتير ، واراد ان يقوم حكمنا على أساس مواجهتها بالعلائق الانسانية الفعلية التي تقيمها الدولة الاخذة بمذهب الحرية . ومثل هذا القول صحيح دون شك ، وصحيح كل الصحة الا يكون المجتمع معبد « القيم ـ الاصنام » التي تنقش على واجهة مبانيه او في نصوصه الدستورية ، وحقيق ان نقول ان قيمة المجتمع اولا واخيرا هي بمقدار ما لعلاقات الانسان مع الانسان في داخله من قيمة . وليس الامر ان نعرف ماذا تصنع الدولة الدائنة بالحرية داخل حدودها وخارجها . والمباديء التي في الباطن هي ضرب من الفرار ان لم تحرك الظاهر والحياة اليومية .

فماذا نجد ان نحن طبقنا هذا المعيار على الشيوعية ؟

وهل تصمد الشيوعية لهذا المحك اكثر من صمود مذاهب المعسكر الغربي ؟

لن ندخل هنا في الجدل الفكري الطويل ، ولن نتحدث عن اضطهاد الانسان للانسان ضمن الاتحاد السوفياتي ، ولن نتحدث عن المجازر والقتل والارهاب ودعاوى موسكو . وحسبنا ان نقول في هذا كلمة موجزة ، **وهي ان الشيوعية لم تستطع في بلادها نفسها ان تقدم لنا كما زعمت في البداية ، مقابل الحريات « الصورية » التي تنسبها الى الدول الديمقراطية حرية شخصية حية ، حرية حضارة بروليتارية لا بطالة فيها ولا استثمار ولا حرب** . والانتقال الذي قال به ماركس من الحرية الصورية الى الحرية الفعلية أمر لم يتم بعد ولا يرجى ان يتم . والشيوعية انحدرت في طريق لم يعد من الممكن معه العود الى ثورة عام ١٩١٧ او معاودة التجربة من جديد . والمصير البائس الذي تتردى فيه الحرية في المجتمعات الديمقراطية تهبط الشيوعية في هوته بل توغل فيه . اذ علينا ان نذكر دوما ان الحرية تصبح شعارا كاذبا ، وتاجا رائعا يتوج به العنف والارهاب، منذ ان تتجمد في فكرة ومنذ ان يصبح الدفاع منصبا على الحرية بدلا من ان ينصب على الناس الاحرار . وهذا ما غرقت فيه الشيوعية حتى الاقان . ومن المستحيل اليوم ان يؤكد اي حر في العالم ان النظام الشيوعي يمضي نحو اعتراف الانسان ، بالانسان . والسلوك الشيوعي ما يزال يوغل فيما اتهم به الاخرين : في اصطناع الحيل والخبث وتزييف الحرية وجعلها صنما يعبد ليذبح على اقدامه الديانون به . وهكذا اصبح الهدف الاساسي للشيوعية مصابا في قلبه : فالبروليتاريا والوعي الطبقي اللذان هما اللحن الاساسي للسياسة الماركسية ، اصبحا مهددين بالضعف والزوال نتيجة للمكر المنظم والخداع واخفاء حقيقة اللعبة طويلا عن الطبقة البروليتارية نفسها . صحيح ان من الجائز ان ينحرف اللحن الاساسي الى الحان تصاحبه اذا فرضت الظروف ذلك ، ولكن انحراف اللحن انحرافا واسعا جدا او طويلا جدا يخربه ويرديه .

ولكن ، لندع هذا الجدل الفكري الذي قد يذهب بنا بعيدا ولا بد لاستيفائه من صفحات طوال . ولنرجع الى لغة الحياة ، حياتنا نحن العرب . فلقد قررنا منذ البداية ان المرحلة التاريخية التي نجتازها والتجربة الذاتية التي تعانيها امتنا هي القمينة بتقويم الاشياء ووضع المباديء في نصابها .

فماذا نجد ان نحن وضعنا الشيوعية على محك تجربتنا القومية الانسانية الحية ؟ ماذا تجد الشعوب الصغيرة مثلنا، التي رسمت لنفسها طريق الانبعاث القومي والاسهام الانساني والبعد عن المعسكرات ؟

لقد حاول « خروشوف » كما نعلم ان يغير من سياسة ستالين ، واعلن في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي مجانبته لاسلوب القسمة الثنائية للعالم بين معسكرين متعاديين لا ثالث لهما ، وجرب ان ينادي بالتعايش السلمي، بل بشّر بظهور معسكر ثالث هو كما يقول :« معسكر الدول المسالمة في اوروبا وآسيا التي جعلت من عدم الانحياز الى المعسكرات المختلفة مبدأ سياستها الخارجية » . ووصف

(1) مقدمة كتاب كارل ماركس حول نقد فلسفة القانون لهيغل

هذا المعسكر بأنه ينبيء عن « قيام منطقة سلام واسعة في الحلبة الدولية »(١) .

فلقد كان ستالين كما نعلم يعتقد ان الحرب بين المعسكرين واقعة لا محالة وان لا سبيل الى التفاهم والتعايش السلمي، أما « خروشوف » فقد حاول ان يقرر ان الحرب ليست قدرا محتوما وذلك بسبب قيام دول « غير استعمارية » ومحايدة. وهكذا بدا الاتحاد السوفياتي وكأنه اغمد السيف الذي سله ستالين في حرب كوريا ، ولجأ الى أسلوب جديد. بل ذهب خروشوف في تمنياته الى ابعد من هذا ، فثار على من يتهم الاتحاد السوفياتي بانه يحرض الشعوب على الثورة وبأنه يصدّر الثورة ، فقال « بدهي الا يكون بيننا ، نحن الشيوعيين ، من يتبنى الرأسمالية . . . ولكن هذا لا يعني اننا تدخلنا او نتهيأ للتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان التي يسود فيها النظام الرأسمالي »(٢). بل أضاف الى ذلك ساخرا : « ان من المضحك حقا ان نفكر بان الثورات يمكن ان نفصلها كما نفصل الاثواب!»(٣)

وطربت الشعوب الصغيرة لمثل هذه التصريحات وظنت ان ثمة تعديلا حقيقيا في سياسة الشيوعية الروسية . وكسب الاتحاد السوفياتي عطف كثير من الناس بفضل هذا الموقف الجديد ، وبدا محبا للسلام وللتعايش السلمي ، ومدت له اكثر الشعوب الحرة يد التعاون في سبيل هذه المباديء الانسانية .

ثم تأتي حوادث العراق ، فتثبت بما لا يقبل الزيف ، بان هذه التصريحات كانت ((طعما)) لاصطياد الشعوب ، وانها مجرد ((تاكتيك)) جديد وسلاح امضى من السلاح الستاليني من اجل خدعة الشعوب والسيطرة عليها . لقد لجأ ستالين الى « الهجوم الوجهي » كما يقال ، الى المقاتلة وجها لوجه . فلم تفلح سياسته في كوريا او غيرها وعزل روسيا عن العالم . فارادت السياسة السوفياتية الجديدة ان تسلك سبيلا اكثر مرونة وبراعة ، سبيلا حلزونيا ملتويا ، فوضعت الخطة التالية :

(١) تخليص المعسكر الثالث من سيطرة الغرب وتقوية صلاته السياسية والاقتصادية مع الاتحاد السوفياتي.

(٢) تأييد حركات الاستقلال والتحرر لدى الشعوب الصغيرة تأييدا فعليا ، لتوسيع نطاق الكتلة الثالثة .

(٣) محاولة التقرب من الدول الديمقراطية الغربية .

وبعد هذه الخطوات ، يتم الانتقال الى خطوة نهائية وهي محاولة الامساك بزمام القيادة للدول الاسيوية الافريقية.

ولكن العرب ، كما قلنا ، كانوا قد وعوا ذاتهم ، وادركوا وجودهم ، ولهذا كان لهم الفضل في فضح هذه الخطة وفي كشف الحلقة الاخيرة منها ، وفي اطلاع العالم على النوايا الحقيقية للاتحاد السوفياتي .

لقد وضعت القومية العربية في مرحلتها التاريخية ، كما ذكرنا ، القيم العالمية موضع التجريح وعلى محك البحث . **واستطاعت الحركة العربية الحرة التي يقودها زعيم العروبة جمال عبد الناصر ان تسبق الى اكتشاف انحراف المعسكر الشرقي عن تصريحاته السابقة لاسيما بعد ان قامت حركة العراق ، وظهر التدخل المباشر السافر في حياة الشعوب الصغيرة ، وحطم مبدأ عدم اثارة الثورة ، وبرزت الشيوعية امام العالم من جديد معتدية عنيفة ، تلجأ الى الارهاب والحيل والخداع ، وتبعث على الثورات الدامية ، وتطوح بالمواطنين الاحرار ، وتجرب ان ترغم شعبا بكامله على غير** ما يعتقد . وهكذا تثبت القومية العربية الواعية للعالم كله ، ان الشيوعية لا تستطيع ان تجانب المصير الذي تردت فيه منذ زمن ، ولا تستطيع ان ترجع عن الطريق المخيف الذي جرت اليه الانسانية طريق القضاء على قيمة الانسان وعلى حريته.

ان ما قرره « لينين » منذ سنوات في كتابه « **مرض الطفولة في الشيوعية** » يطبق اليوم حرفيا في العراق. **لقد قرر** ان التجربة الروسيه تصلح نموذجا دوليا ، وان لا حاجة الى ان يحذف منها شيء « كما اكد ان سائر البلدان سوف تمر لا محالة بما مرت به روسيا (ص ٢٠) وانها لن تستطيع اجتناب الديكتاتورية الوحيدة للحزب الشيوعي الوحيد ». بل ان ما يجري في العراق يؤكد من جديد استمرار ايمان الاتحاد السوفياتي بان الحصول على الاكثرية الشيوعية ، كما جرى في آب ١٩١٨ ، يمكن ان يتم عن طريق التحطيم الجسدي للاعداء .

وهكذا تعود سياسة الاتحاد السوفياتي الى التدهور والتراجع ، و « يكنس » الاتحاد السوفياتي نفسه نهائيا في نفوس الشعب العربي وفي نفوس سائر الدول الحرة والناس الاحرار في العالم . وهو اذ يعاود من جديد سياسة ستالين في بلد عربي كالعراق ، ينسى ان هذه السياسة لم يقدر لها النجاح في وقت كانت الشعوب الصغيرة فيه لم تستيقظ بعد ، فهيهات ان يقدر لها اي قسط من النجاح في مثل وقتنا الذي استيقظت فيه الشعوب من غفوتها وادركت معنى الحرية ، وجهدت في سبيل الوصول اليها . والشعب العربي الذي تمرس بالنضال وضحى بالكثير في سبيل تخلصه من الاستعمار الغربي ، لا بد ان يلفظ جسده كل محاولة جديدة من اجل اخضاعه لاستعمار جديد . لقد قارع الاستعمار الغربي رهو اضعف بنية واقل وعيا لوجوده فهل يعجزه ان يقارع الاستعمار الشرقي بعد ان ادرك ذاته وعرف طريقه؟ **انه اليوم يؤمن اعمق ما يكون الايمان مع الشعوب الصغيرة والحرة ، انه مدعو الى انقاذ مصير سائر الشعوب ، بل مصير الانسانية جمعاء . وموقف الحياد الايجابي الذي آمن به مع كتلة ضخمة في العالم ، هو طريق المستقبل ، وهو امل الانسانية ، وهو القيمة التي ستجد وراءها ملايين المؤمنين الاشداء .**

وان ما يجري في العراق اليوم تحد جديد يقوم به الانسان ضد الانسان ، والعربي في هذه المعركة هو الحارس الذي يحول بين الانسانية وبين ان تتردى كرة اخرى في هاوية تنكر اعمق لقيم الانسان وحضارته . ولقد عرف العرب في سائر عصور تاريخهم ان يكونوا حماة القيم الانسانية الحقة ، ولقد كانت قوميتهم دوما ملاذا دون انكار الانسانية لذاتها وجريمتها في حق نفسها .

وهم اليوم مع الشعوب المحبة للخير والسلام في العالم يحملون المشعل ، ويشقون الطريق نحو تجربة جديدة ، تجربة تقي الانسانية من الانهيار ، وتضمن لقيمها الخلود .

دمشق

عبدالله عبد الدائم

---

(١) الصفحة ٣٠ من تقرير المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي (الترجمة الفرنسية ـ نشر (Cahiers du communisme)

(٢) (٣) المصدر نفسه ص ٤٢